أسبَلَ الجفون وقد عاينَ شآمه تستلُّ ياسمينها من غمد الأريج تواجه بمواويل البقاء غزاتها البُغاة

يغادر حزنه وحيداً

■ سلوى عبّاس*

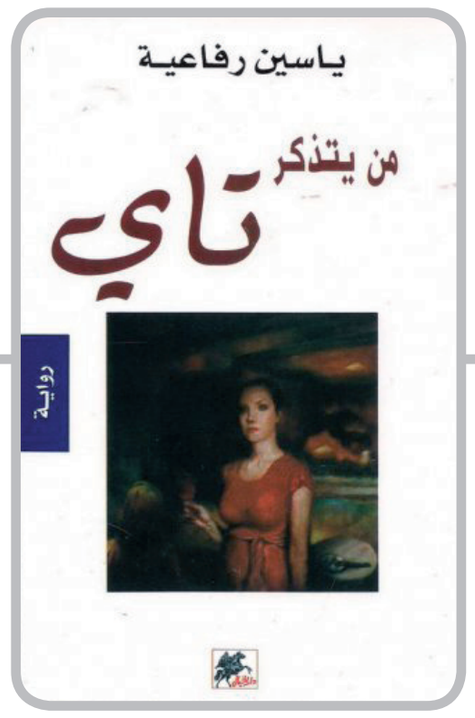

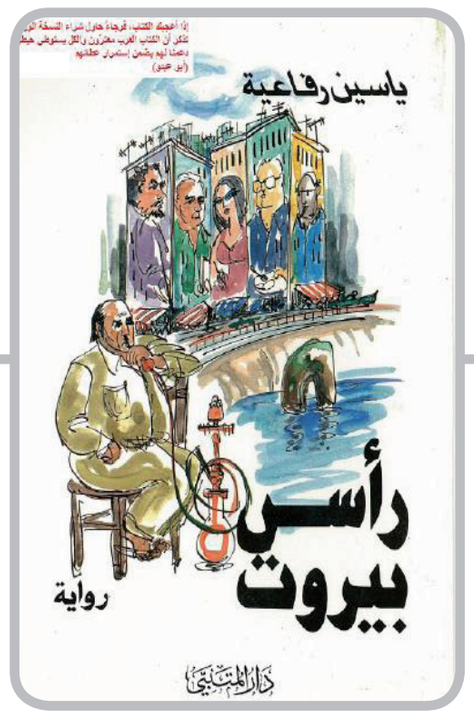

بصمت، ومن دون ضجيج، غاب ياسين رفاعية. أعلن رحيله بنبل وترك أهله ومحبّيه وكلّ ما جاهد من أجله في الحياة، لعله يكون ذكرى أو رسالة يكملها أحد من بعده. توقف ينبوعه دفعة واحدة عن التدفّق بعد سأم أصاب روحه فأعلن النهاية.

كم يبدو الغياب ثقيلاً وغير محتمل حين يدقّ الموت باب يومنا معلناً نفسه ضيفاً مقيتاً لا نستطيع التآلف معه، لكننا نتقبله بامتعاض يرافقنا مدى الحياة. هذا الزائر الذي يقيّدنا بسلاسل من استسلام لا يمكننا الفكاك منها، فقد رحل الأديب رفاعية تاركاً تاريخاً إبداعياً في فنون الأدب المتعددة.

رحل ياسين رفاعية، وربما في اتكائه على الموت يكون قد قرّر الإبحار في رحلة استكشافية جديدة. رحلة من الصعب التصديق أنها الرحلة التي لن يعود منها، بعد أن قضى عمره أسير حلمه. مشروعه الأدبي فحكايته مع الكتابة هي حكايته مع الحلم الذي رافقه منذ الصغر. هذا الفنّ المضمّخ بروحانية تسمو بالذات وتطلقها من أسْر التفاصيل المملّة إلى عالم الجمال الرحب. فالكتابة بالنسبة إليه كانت الرئة التي يتنفّس الحياة من خلالها، فهو لم يكتب من أجل الشهرة، بل من أجل التواصل مع الناس ولو عن بعد، لذلك كانت الكتابة بالنسبة إليه فعل حبّ بالدرجة الأولى، وعندما كانت تلحّ عليه الغربة والوحدة، لم يكن من رفيق يلجأ إليه إلا الكتابة كطقس يمارسه حيث لم يكن قد تجاوز السبعة عشر عاماً، يوم بشرت الجائزة التي نالها عن قصته «ماسح الأحذية» التي شارك بها في مسابقة أعلنت عنها مجلة «أهل النفط» التي كانت تصدر في بغداد ويديرها الكاتب جبرا إبراهيم جبرا، ومن يومها وجّه بوصلته باتجاه الكتابة، وقد خدمه عمله في فرن والده ومن ثم في محل لصناعة الأحذية، بأن وفرّ له الكثير من الحكايات التي كانت قصصاً حقيقية لأشخاص عايشهم عن قرب وعاش معهم. فأصدر عام 1960 مجموعته القصصية الأولى «الحزن في كل مكان»، حيث كان الواقع المرير الذي يعيشه الناس هو أسّ الحكاية في قصصه الأولى، وبعدها أخذت الكتابة لديه بعداً أكثر عمقاً، وابتكر أساليب جديدة في القصّ والتعبير عن آلام الناس التي كان يوثقها بأسلوب شيق ولغة شعرية حزينة. وفي عام 1963 أصدر مجموعته الثانية «العالم يغرق» حيث كان كل شيء يغرق ويخيب آماله.

في سبعينات القرن الماضي قادته الحرب الأهلية اللبنانية إلى عالم الرواية فكانت روايته «الممر» التي وثّق من خلالها أحداث هذه الحرب بكل تفاصيلها، ثم توالت أعماله الأدبية التي تراوحت ما بين الرواية والقصة والشعر، وقد كتبت الكثير من الدراسات النقدية حول تجربته الأدبية فأغنت هذه القراءات تجربته وصقلتها ومنحتها التجدّد.

لم يكن الأديب رفاعية يسعى بشكل مباشر إلى الإدهاش والتشويق في أدبه، بل كان يكتب نفسه كما هو، كان ينقل إلى القرّاء نبضه وكل ما يختلج في روحه، من دون أن يفقد خصوصيته التي كانت تحضر حتى في الشأن العام. فجمهوره كان من الناس الذين يشبهونه.

الموضوعات التي تناولها رفاعية في أعماله حملت جرأة تجلّت بالتحريض على الوعي، والانفتاح على الداخل الإنساني، وهذا الموضوع لم يكن لديه حدود عنده، فقد كان عالمه من الفرادة والتميز أنه استطاع أن يتمثل ما عرفه ويفيد منه جيداً، فشكّلت نسيجاً متآلفاً في القصة القصيرة امتاز بشيئين ثمينين الأول هو هذه الرؤية المنفردة للواقع، واقع القهر والتخلف وافتقاد الحاجات الأساسية والتوق إلى إشباعها، والثاني هو هذه الصياغة الشعرية التي تستخدم عناصر الواقع حيناً فتجعل من تراكمها عالماً شعرياً موحياً أو تكثفها حيناً وتقدم لها مقابلاً تعبيرياً نابضاً بالحياة لا توليداً ذهنياً فاتراً يفتقد الصدق والحرارة.

كان الأديب الراحل ياسين رفاعية يقول «ولدت وفي فمي ملعقة من حزن» وهو الذي عانى من الحزن والفقد كثيراً حيث كان لرحيل زوجته المبكر ومن ثم رحيل ابنته وقعه الصعب على قلبه وروحه، وها هو اليوم بعد أن أثقلت عليه الحياة الكثير من التعب والوحدة، يرحل تاركاً حزنه وحيداً.

* كاتبة وإعلامية سورية

سراب الوداعات

■ محمد سعيد العتيق*

دمُوعُ العينِ تُسكبُ في المآقي
وطُهرك منْ شآبيب البُراقِ
أياسينٌ ملاكٌ في عيوني
وذكرك (يا صُويحبُ) بَعدُ باقِ
ووجهُك لا يفارقُ دمعَ عيني
وروحي في اشتياقِ للتلاقي
كأنَّ الروحَ قد رحلتْ بليلٍ
وكانَ القلبُ يرغبُ بالعناقِ
على فجءٍ مُصابُ الموتِ يأتي
ظلامٌ دامسٌ إثْرَ الفراق
(رفاعيَّةَ) عَفافُ الطُّهْرِ أنّى
تُداهمُنا المَنيَّةُ بافْترَاقِ!
صديقي يا أخي وغلالَ حُبٍّ
وكُنتَ منَ النوادرِ بالخلّاق
برَحمَةِ أكرَم الرحَماء يَعفو
سَيلقاكَ الرسولُ مَعَ الرفاق

* شاعر وطبيب سوري

حبّ كبير كُتب بالدم... وكؤوس الحرب تقامر على البلاد

■ سوزان الصعبي*

في رواية «امرأة غامضة» التي كتبها الروائي والشاعر السوري الراحل ياسين رفاعية عام 1991 ونشرتها «دار الفاضل» في 2006، يطرح رؤيته حول الحرب الأهلية اللبنانية، التي يبدو أنها كانت جزءاً أساسياً من حياة الكاتب وتفكيره وقضاياه. فبقدر ما طال أمد هذه الحرب بقدر ما طعنت حيوات الناس الأبرياء وأردتهم قتلى وجرحى وفرائس الخوف الدائم.

يقول: «الحرب مستمرة. لعن الله الحرب، ننتقل من سيّئ إلى أسوأ، وتكثر الشعارات الفولكلورية التي يذهب تحت رايتها آلاف القتلى».

عالجت هذه الرواية القصيرة المؤلفة من 136 صفحة الكثير من الأفكار العامة والهامة المنبلجة من عمق أزمة الإنسان العربي اللبناني، الذي وجد نفسه وحياته وعائلته ومصيره بين فكَّيْ حرب عبثية يتجدّد ضحاياها الأبرياء كلّ يوم، واعتمد خطّها الرئيس على قصة حبّ غامضة بين الشابة الطالبة في الجامعة الأميركية في بيروت، والرجل الذي يكبرها بكثير ويكاد يكون في سنّ والدها. قصة حبّ بدأت من مقاعد الحفلات الحماسية التي تغنّي «أناديكم أشدّ على أياديكم...»، لتتكرّر اللقاءات بينهما بالمصادفة وتستمرّ بلا مواعيد، هي المليئة بالحيوية والإيمان بتحرير الوطن، وهو سليل خسارات كبيرة ألمّت بالأمة. يقول الراوي المحامي العاشق: «عندما كنت شاباً كنت أصدق كل الإذاعات، وكنت مهووساً في الاستماع إلى أحمد سعيد...». ثم يتابع: «أحمد سعيد هذا الذي ظلّ يصرخ في آذاننا ليلاً ونهاراً: يا عرب في كلّ مكان... ليس إلا ظاهرة صوتية تليق بنا حقاً».

هكذا استمرّت اللقاءات المتباعدة بين عاشقين نجهل اسميهما في المقهى والطاولة المختبئة ذاتهما، واحتل الشوق كيانه إلى درجة أنه تجرأ على الذهاب إلى الجامعة والبحث عنها، لكنها صاحبة الغموض والغياب الشاهقين والحضور الآسر والشخصية المبدئية، فقد عرف أخيراً سرّ غيابها المتوالي الذي تحوّل إلى غياب دائم، فكثيراً ما تغنت بالشهداء وقالت عنهم «هؤلاء شعراء، يكتبون قصيدتهم بالدم، يكتبون قضيتهم بالرصاص».

إذاً، صمتت كثيراً لتقول بعدها الكثير، وليرى صورتها تعلّق على الجدران ملتصقة بصور شهداء آخرين، وتسبح جثتها في الماء كما أوصت قبل قيامها بعملية استشهادية أوقعت الكثير من القتلى في صفوف الأعداء الحقيقيين الجاثمين على صدر الوطن، فالشهيد تلو الشهيد هم من سيسترجعون فلسطين قريباً. هذا ما آمنت به «ابتسام» التي عرفنا اسمها بعد استشهادها وتركها رسالة وخصلة من شعرها لذلك الرجل الذي أحبها، والذي صحا أخيراً من كبوة جثمت على عقله طوال عقود وعرف هو الآخر كم عليه أن يؤمن بقضيته من جديد.

وفي رواية «دماء بالألوان» التي كتبها الراحل رفاعية في لندن عام 1984 ونشرها في 2006، قصة أخرى من فواجع الحرب اللبنانية بطلها الرسام «وديع الخال» وقد فقد زوجته وأطفاله الثلاثة ولوحاته الفنية التي كان سيعرضها في وقت قريب، بينما كان هو غائباً في عمله أصابت قذيفة بيته وأودت بالأحبة جثثاً هامدة!

هرب «وديع» من ويلات الحرب باتجاه دمشق وقد حوّلته نكبته إلى شخص آخر، الفاجعة تغلغلت في قلبه الكسير، فانتقل إلى اللاذقية ولم يسلم من رائحة بحر بيروت، ثم هرب إلى قبرص ومنها إلى بريطانيا التي لا يعرف فيها أحداً، هو يريد الاختباء بفاجعته عن الناس، وكأن عار الحرب بين الأخوة يقع على رأسه وحده.

وفي الطريق إلى لندن، تعرّف إلى رجل مغربي لطيف ساعده بعد ذلك ابنه رجل الأعمال في العثور على بيت ريفي استعاد فيه قدرته على الرسم، وظل يرسم وجه زوجته «وصال» التي قضى مع حنانها 15 سنة.

في خضمّ حديثه مع امرأة عجوز التقته بالمصادفة في حديقة واقتربت منه لظنها أنه مريض، سألته: «الحرب العالمية انتهت بخمس سنوات ولم تنته حربكم بعد؟!».

هي حرب من دون هدف. حرب من دون انتصار. كما قال «وديع»، هذا الرجل الذي يمثّل ملايين الضحايا في بلاد عربية توالدت فيها الحروب، فسفكت الدماء وهجّرت الشباب وأفقدت الأطفال ضحكتهم وبراءتهم.

رحم الله كاتبنا الكبير ياسين رفاعية الذي نادى بالحبّ في متوالياته «نصوص في العشق»، والتي قدّم لها بأبيات من مجنون ليلى وجميل بثينة والحبّ المنزّه عن كل غرض، وما أجمل تلك المختارات القصيرة المنتقاة من كتاب عرب وعالميين والتي وضعت كعتبة لهذه الرسائل المسماة تباعاً «حبّ شديد اللهجة»، «كلّ لقاء بك وداع»، «أحبّك وبالعكس أحبّك».

كان كاتبنا يتمتع بحساسية وصدق وطفولة، أرجو أنه كان مثل شيلر الذي قال: «لقد تمتعت بسعادة هذه الدنيا لأنني عشت فيها وأحببت».

* كاتبة وصحافية فلسطينية

عابر حياة بفراق شديد اللهجة!

■ ديمه داودي*

قد لا يفطن القارئ إلى أن أجمل ما كتبه الأديب الراحل ياسين رفاعية قد نهض من جلّ الوجع حيث كان يلتقي مع زكريا تامر ويوسف شرورو في المقبرة، ليتلو كلّ منهم ما كتبه على مسامع الآخرين. وربما محاولة في بثّ الدفء إلى الرخام العاري الذي يحتضن الأجسام الباردة بعدما فارقتها الحياة.

حيث رقد جسد الأديب الراحل ياسين رفاعية بعد 82 سنة من العطاء والبذل في سبيل الحبّ، فقد كان مأخوذاً عليه أنه نزاري الهوى درويشي الميول.

على رغم نشأة رفاعية البسيطة وسط أسرة دمشقية «مستورة»، حيث ساعد والده في العمل خبّازاً في فرنه البسيط حين كان في الثالثة عشرة، وكأنه دونما يدري يسير على خطى العمالقة الذين ضاء نجمهم على رغم كل الضباب والأوضاع الذاتية والسياسية وحتى الدولية التي عاشوها، وهنا لا بدّ أن نذكر كلّ من حنّا مينا وزكريا تامر.

قبل أيام، ضجّت مواقع التواصل الاجتماعي بـ«بوستات» ومنشورات عن ياسين رفاعية. وكأن من شأن هذه المنشورات أن تهبه الحياة وتعيده إلينا مجدّداً. كثيرون لقّبوه بـ«عميد الحزن» أو «العصفور» وحتى «حكّاء الحزن». لا بل أنّ البعض تطرقوا إلى مسيرة حياته الصعبة التي انعكست في كتاباته بجميع أنواعها، خصوصاً مطبات الفراق والفقد التي تعرّض لها.

تذكر بدايات رفاعية أنه ترك المدرسة في عام 1947 ليساعد في إعالة عائلته سواء بالعمل مع والده أو بالمساعدة في الحدادة. وحتى العمل في صناعة الأحذية وتصليحها. وحينذاك، بدأت تتفتّق لديه الميول الأدبية التي مشت به بخطى حثيثة تنحت في الصخر نحو الوحي الأدبي والصحافة في دمشق، حيث عمل بعدها مع فؤاد الشايب في مجلة «المعرفة»، وفي جريدة «الثورة»، ثم توجه نحو الصحافة اللبنانية وكان للطفل حيّز كبير من اهتماماته فعمل أيضاً في صحافة الطفل.

كما تذكر سيرة حياته أنه طرد من الوظيفة ومن ثم انتقل إلى بيروت ما جعله يبدو كعابر سبيل. كما وقع على نصوصه في بعض في الصحف اللبنانية ليصبح أخيراً ليس عابر سبيل فقط، إنما عابراً لحياة أشقت عليه بأوجاعها فوهبها روح حرفه وإبداع فؤاده بعد أن حاول التأقلم معها لعلها تخفف من مشقة الفقد عليه. فقد كانت على رغم ما يفيض به من حبّ لا سيما تحمّل بصمة الحزن التي أنجبت أولادها وبناتها غصباً عن ضحكته الهادئة على صفحاتها، حتى كاد لا يتخلص منها حتى عند الانصياع لها والتبتل لصلابتها.

كتب رفاعية: «الحزن في كلّ مكان... قصصي الأولى، كتبتها وأنا شاب في العشرين، وصدرت طبعتها الأولى عام 1960، ويوم كتبتها قصة بعد قصة كنت أرى الحياة بغير ما أراها الآن، كنت أقل كآبة، وأقل حزناً، وأكثر فرحاً، ومع ذلك كانت القصص سوداوية وقليلة الحظ، ولا أدري وقعها الآن، وقد تكاثرت الكآبة وكبر الحزن ومات الفرح!».

كما أن رفاعية، وعلى رغم التطوّر الملحوظ في مؤلفاته، إلا أنه وحتى الفترة الأخيرة من حياته، كان متواضعاً كثير الحبّ مصادقاً لتفاصيل الموت، خصوصاً بعد وفاة زوجته الشاعرة اللبنانية أمل الجراح التي تعمّد بحزنه على فراقها، خصوصاً بعدما بلغته فاجعة موت ابنته لينا بعد سنة من وفاة والدتها. لتجعله يبدأ باستسهال الألم والابتسام للموت.

كذلك، كتب القاصّ السوري ياسين رفاعية في مفتتح أعماله الكاملة الصادرة عام 2012، عن «دار جداول» في بيروت: «ومذّاك، كنت قليل الثقافة، فأنا في الأصل عامل لم تتح لي ظروف حياتي أن أتابع دراستي، وبسبب ذهابي إلى المخبز الذي كنت أعمل فيه منذ الرابعة صباحاً حتى السادسة مساء، لم أكن أستطيع القراءة حتى كنت أعيش حياة صعبة، وكان التعب يهدني فأذهب إلى النوم مباشرة... كانت أوضاعنا صعبة وشرسة».

ولا بدّ لنا عند تناول حياة رفاعية من ذكر قصة «ماسح الأحذية» الحاصلة على الجائزة الأولى في مسابقة «مجلة النفط» التي كان يديرها جبرا إبراهيم جبرا.

واللافت، إن قصته «الرجال الخطرون» الصادرة طبعتها الأولى عام 1979 اتخذت من إدانة الاستبداد طابعاً لها حيث طبعت عدة طبعات وترجمت إلى عدّة لغات أيضاً. وكذلك كانت روايته «مصرع الماس» التي ترجمت إلى الانكليزية ولاقت رواجاً كبيراً.

واللافت أيضاً انتقال رفاعية إلى الرواية حيث برزت روايته «من يتذكر تاي» وروايته «ياسمين» التي سرد من خلالها قصة حبّ ابنته لينا مع الإنكليزي جون، والصراع بين قيم الأب الشرقي وقيم جون الذي تزوج لينا.

بالعودة بحياة رفاعية، نجده تنقل بين دمشق وبيروت ولندن، لكن بيروت ظلت ملاذه الأثير، فآثرها برواياته: «الممر»، «رأس بيروت»، «وميض البرق»، «دماء بالألوان»، «من يتذكر تاي»، «امرأة غامضة». وفي هذه الروايات، كما في غالبية رواياته، انبرت الملامح الذاتية التي تغصّ بالذكريات والوجع. ليصبح نتاج رفاعية أكثر من 30 عملاً أدبياً تتوزّع بين القصة والشعر والرواية خلال حياته.

ما زالت نصوص رفاعية منذ بداياته وحتى اللحظة تعانق الروح وتصلبها عند مفترق الوجع. فالبوح عنده متوغّل في الأعماق حدّ الانعتاق. يتحدّث عن الموت أكثر من الحياة، ليتركنا رفاعية كما حال «سيرين» في روايته حين تقول: «أنا أصبحت أحبّ حكاياتك الحزينة منها والمفرحة. أنت حكواتي جيد. اترك الشعر واكتب القصص تملك موهبة وجاذبية في روايتك القصص».

يبدو أن رفاعية كان مؤمناً تماماً وبحق، بقوله حين أورده بلسان «تاي» في روايته «من يتذكر تاي» التي أوردها في الأصل للكاتب جيمس بويز: «إن الحياة كلّها أياماً معدودة يوماً بعد يوم. إننا نمشي عبر ذواتنا مقابلين لصوصاً وأشباحاً وعمالقة عجائز وشباناً زوجات... أرامل وأبناء عمومة... ربما بشعين... إنما نقابل أنفسنا أيضاً ودائماً». إذ يبدو أن روح رفاعية ما زالت ملتصقة بروح زوجته الراحلة الشاعرة أمل حيث يودّ مقابلتها من جديد، لأنها ذاته الأخرى وصمام قلبه الحقيقي. فمن حياة إلى أخرى أيها الدافئ رغم أنف الرحيل!

* إعلامية وكاتبة سورية

ريشةُ جوفاء دنيانا

■ أحمد عموري*

(إلى روح الروائيّ ياسين رفاعية).

حسرةٌ صلبانُها شقّت رقادي
جسمها جسمي على لوح السواد
مدْمعُ الإحساسِ مثقالُ الحنايا
حين تطغى زفْرَةٌ فوق المراد
يهْتدي الصلْصالُ كُرْهاً للبديهي
كلّما مدَّ القذى طعمَ الحداد
لم يصارعْ شاعرُ الأنّاتِ رَعْداً
شدَّ كالنخّاسِ أبعادَ الوداد
أصدقاءُ الأمسِ غابوا وسْطَ قبرٍ
لَفَّهُمْ في موْعدِ نصْلُ الحصاد
أنْجمٌ بالشّامِ غنّوا... كلُّ نقشٍ
يكتسي طيناً سجاياه الشوادي
سنبلات الشعرِ ثكلى كالأيامى
صاغها الترْحالُ قرْحاً للفؤادِ
ناسجُ الأكفانِ كالعشّاقِ يبني
بينَ خمْرِ الوعْدِ أو خمْرِ البعاد
خافقي بعْدَ التشظّي أينَ يرسو؟
يسْتفزُّ النايَ نبْضاتُ السهاد
سنْديانُ العمْرِ وهْمٌ حينَ ننْسى
موْتنا المكْتوْبَ في لوْح العنادِ
ريشةٌ جوفاء دنيانا أمامي
زلزلت رجفاتها ذات الرقاد
والأغاني المشبعات الحبّ داءٌ
قدْ أدارَ الظهْرَ عمداً كالجواد
وانْتحالُ الفكْرةُ الحمقى رداءٌ
طارَ من ريحٍ تجلّتْ كالحصاد

* شاعر فلسطينيّ

الحزن في كلّ مكان

■ نجاح إبراهيم *

ورحل ياسين رفاعية...

مخلّفاً وراءه ذلك الحزن الكبير، الذي انطلق معه إلى الحياة، من حارات دمشقية قديمة، ابتدر به أولى مجموعاته القصصية «الحزن في كلّ مكان» عام 1960، والتي عبّر من خلالها عن قهره حين أجبر أن يخوض الحياة بكلّ قساوتها، وأن يعيش صراعاً حادّاً بين موهبة تتنابت فيه بقوّة وبين صخب الفرن الذي يملكه والده. كانت أفكاره تنضجُ قريباً من النار، حيث يستلهمها من العمال، يُصغي إلى معاناتهم، وعذاباتهم، يطعّمها بما لديه من ألم، فيسكبها بلغة وأسلوب مغايرين.

ولكنه لم يعد يحتملُ هذا الضجيج، ولذع النار في الفرن كلّ يوم، فقرّر أن يلتمس مكاناً يمنحه الهدوء والسكينة ويتحفه بالتأمل، ولم يجد سوى المقبرة الرّافلة بما يشتهي خاصة الصمت الذي يصبو إليه.

راح ياسين رفاعية يتأمل شجرة يهزّها الهواء، وشاهدة منتصبة على الدوام، يستمع إلى شدو طير، ويراقب سير نملة عند أصابع قدمه، وثمة حلم صغير يراقبه وهو يخرج من صدره النديّ.

رغب أن يكسر هذا الصمت الطاغي بحضوره، والمتمدّد البارد ليجعله مسرحاً يدفأ بشخوصه المعذبين، وأصدقائه الموهوبين الفقراء والمتألمين مثله، وأول المدعوّين كان زكريا تامر.

من هنا، ترك الزمام لأحلامه لتكبر وتكبر، فغادر المقبرة، وغادر المدينة، وعافَ حاراتها القديمة، على رغم أنها ظلّت تسكنه وتسير معه، وترفده بذكريات الطفولة، وبدايات الشباب.

غادر إلى بيروت ليستمرّ في الاحتراق، وليكون شاهد عصر، ونبيّ حبر على الحرب اللبنانية التي مدّته بأربع روايات أرثها بلغته الشعرية، التي اكتسبها من خلال ما كتب من شعر تناول فيه موضوعة الحب.

ومع ذلك لم يتوقف عن حزنه، الذي ظلّ يواكب ترحاله الممضّ. بقي ياسين رفاعية غزير الكتابة الحزينة، يشفي بها جراحاً عميقة، وألماً نفسياً. نصحه بها الطبيب النفسي كي يستمر باستساغة الحياة، وكي يدرأ بها الوحدة والخوف والجنون، وكي يستعيد التوازن بعد سلسلة الفقد التي مُنيّ بها.

ما هو لافت، ما وجدته من مفارقة عجيبة، ذلك التغاصن بين سرد كتبه منذ عقود، وبين واقع عاشه، ألا وهي كتابته عن رجل قبضاي أثناء الاحتلال الفرنسي على سورية، أطلق عليه اسم «أبو علي الماس» هذا القبضاي الدمشقي قتل ابنته لأنها عشقت ضابطاً فرنسياً، بينما ابنة ياسين رفاعية عشقت شاباً انكليزياً وارتبطت به، لتبرز معارضة الكاتب لهذا الزواج، من خلال كتابته رواية «ياسمين» حيث يظهر التناقض بين ثقافتَي الشرق والغرب، والاختلاف الجذري بينهما.

ويبقى الكاتب الحزين لديه الشغف الأكبر لأن يكتب عن دمشق، الرّوح والعذابات، يعود إليها، إلى حاراتها العتيقة، المفعمة بالياسمين، ينظر إلى جدرانها العالية يصف أزقتها والبيوت المتلاصقة، يكتب عن أسرارها في روايته «أسرار النرجس» حيث يجوب في عالم ما وراء الجدران، يخترق الثوابت فيها، والتقاليد العفنة، يرصد ما تخفيه من أسرار بأسلوب شفيف لا يخلو من مرارة.

بيد أنّ المرارة سكبها دفعة واحدة في روايته «الحياة عندما تصبح وهماً» حكى فيها عن حبّه الأثير الذي فقده باكراً برحيل زوجته الشاعرة أمل الجراح، وبغيابها فقد إحساسه بالوجود، فمال نحو العزلة، وأحسّ بخوف كبير وبحزن ينتشر في كلّ مكان.

*كاتبة وإعلامية سورية